الفصل التاسع عشر

غريزة القهر والغلبة

عند مسيس الحاجة تنزع النفس بطبيعتها إلى المنازعة والمدافعة مبدية ما عندها من قوة تحقق بها الفوز ، تأمل القط هنا وإسرافه فى البطش بالجرذان يطاردها ويسد عليها المنافذ، ويغتالها بمخالبه الحادة وأنيابه المسنونة، وكثيرا ما تقف أمامه مذعورة من هول الموقف فتسهل له سبيل الفوز عليها والفتك بها. والديكة يهارش بعضها بعضا، والخرفان تناطح، والديك الرومى يهاجم لابس اللون الأحمر القاني، وربما كان هذا اللون رمزا للحرب فى نظره.

والإنسان يبطش بقوته البدنية وبما عنده من قوة العقل والتدبير، فيخترع العدد والأسلحة ويصيد ما شاء من ضوارى الحيوان وكواسر الطير ولو بعيدة عنه، وإذا تجرد من إنسانيته جرد سيفه على أخيه، وبطش به، وأنذر بشر مستطير، وهدد سلامة العالم.

فقديما اعتدى أحد أبناء آدم على أخيه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾. ومن ممارسته لقوته واعتماده عليها فى أطوار حياته وعدم اكتراثه لتحرى سبل الحق تسربت بالوراثة منه إلى ذريته، فبدت فى البدوى والحضرى وفى العالم والجاهل وفى كريم النفس ولئيمها " والكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع " .

على الفروسية وحدها معول البدوي، فيها ينصب نفسه زعيما على قومه، ويبذ

أقرانه فى ساحة القتال، ويصول على من يسحب حقه، وينازل من يمس كرامة عشيرته ومن يلوذ به، ويبلى البلاء الحسن فى المحافظة على شرفه، حتى أصبح الأخذ بالثأر من أقصى أمانيه. بذلك مجده الناس وكرموه وتفاخروا به وأحلوه أعماق قلوبهم، وأكبروا قدره وتنافسوا فى الانتماء إلية بالقرابة والمصاهرة، وعاونوه على تنفيذ أغراضه، وجادوا له بنفوسهم لاعتقادهم أن وصمة العار لا يزيلها إلا الأخذ بالثأر، كما تزيل النار خبث المعادن.

أما سكان المدن فشغلتهم حضارتهم ورفاهتهم عن المصارعة البدنية، وعدوا عمرهم أغلى من أن يقامروا به؛ فأنابوا عنهم حكومة يقظة مسلحة، وكلفوها الذود عنهم فى الوقت العصيب، واستعانوا بها على حماية حقوقهم، ثم وجهوا قوسهم إلى تذليل القوى الطبيعية واستخدامها لتشييد قواعد العمران وترقية شؤون الجماعات. بذلك استعاضوا عن خشونة البدوى دماثة الطبع وزينوا بها مجتمعاتهم، ورفعوا شأن من تحلى بها فصارت غريزة من طول ممارستها. ولا تكاد ترى عند أحدهم من الجراءة البدنية ما تراه فى البدوي؛ بيد أن طبيعتهم الأصلية لا تزال تتغلب عليهم فيتحينون الفرص للإفلات من وطأة القانون، ويتخذون من ألسنتهم وقواطع حججهم ما هو أشد بأسا من الحسام، وإذا أعيتهم وسائل الإقناع واستمروا على تعصبهم لرأيهم خرجوا من حظيرة المجادلة إلى المشادة، فهددوا وأوعدوا.

ومن دلائل تمجيد الناس للقوة البدنية إكبارهم لأبطال الحروب، والمبارزة من أشد الوسائل لاحتدام الخواطر وجيشان القلوب وإضرام نار الحرب. يبرز من الجيشين بطلان للمشادة والمغاضبة، ثم ينتصر الفريقان كل لصالحه ظالما كان أو مظلوما.

وربما كانت المبارزة آخر سهم فى كنانة المتحاربين، ومفزع زعمائهم حقنا لدماء المستميتين. فقد دارت رحى **الحرب بين على ومعاوية** يبعث فيها النفوس بالثمن

البخس، وخشى المسلمون اتساع نطاق الفتنة، فتقدم على إلى معاوية وقال له: " علام يقتتل الناس؟ هلم إلى الله ، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور " وهذا مما امتاز به على من ضروب الحكمة. ومن غلب عقله هواه، وقلب العداوة صداقة، والمكافحة مصالحة، والحرب سلما، كان أولى بالإعجاب وأحق بالإكبار، ومثل على من يجود بحياته لتقليم أظفار الفتنة.

وإلى عهد قريب كانت المبارزة مرجع المتنازعين يلجؤون إليها للفصل فى أمورهم. والمتفرجون يتهافتون على ميدانها. هاتفين مصفقين لمن يحوز الفوز، وهو يعد صاحب الحق فى نظرهم ولو كان فيه دعيا. ولكى لا يتفاقم الشر يقف الأطباء من ورائهم لتضميد الجروح وإسعاف المصاب، ومتى شهد له الحاضرون بالفخر برد دمه الثائر، وانثنى إلى المهزوم عاطفا عليه متقدما إليه بوجه باش وصدر رحب، ويده ممدودة للمصافحة إيذانا بأن صلة الود قد عادت، ونيران الضغينة قد التهبت واحترقت.

والناس تلقاء هذه الغريزة صنفان: صنف بالغ فى قهر غيره استرسالا منه فى مطالب هذه الغريزة، ومنهم قدامى الإغريق ومن جرى على شاكلتهم فقد اتخذوا للحرب إلها، وبلغ استهتارهم بالضعفاء حدا ممقوتا، ذلك أنهم كانوا يرمون الطفل من فوق جبل مرتفع متى تسرب إليه المرض الذى يشل أعضاءه فيصبح مغلوبا على أمره، عالة على أهله وعشيرته، عائشا فى أحضان الذل، منذرا بذرية سقيمة، والحياة تتطلب الجهاد الدائم لمصارعة الشدائد والنوازل، وما لم تتحقق فى الإنسان بشائر القوة فالموت خير له ، بهذا وبغيره ضل أتباع هذا المذهب وغلبوا اليأس على الرجاء، وجردوا قلوبهم من حلية الرأفة وهى أكبر مزايا الإنسان، ينصبون الفخاخ للضعفاء، ومتى صادوهم ارتكبوا معهم الفظائع وأذاقوهم مر العذاب، وكلما سمعوا منهم تأوها استخفهم الطرب فازدادوا سرورا، وهؤلاء هم المردة الجبابرة السفاكون لدماء الأبرياء. وصنف آخر استعانوا بالقوة لتخفيف ويلات الإنسانية،

يجودون بمالهم وعمرهم، ويتجاوزون عن حقهم فى القصاص، وما العفو إلا عند المقدرة، فهؤلاء قد شايعوا دين الفطرة فى أسمى مبادئه المبسوطة.

ثم كانت الرحمة المطلقة شعار فريق من الهنود، حرموا ذبح الحيوان استفظاعا لتعذيبه، واستنكارا للنزول فى الفتك إلى مستوى الحيوان، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرى الذى عاش نباتيا، ومن شدة تمسكه بمبدئه كف عن أكل اللحم حتى فى وقت الحاجة، فقد روى أنه مد يده يوما إلى طعام وصفه الطبيب فوجده دجاجة، فامتنع عن الطعام وخاطبها بقوله: " استضعفوك فقتلوك هلا قتلوا شبلا ".

ومن يتفقد حالنا الاجتماعية يرى الأقوياء يهزؤون جهارا بالضعفة، ويناوئونهم، ويستحلون أموالهم، منتحلين الأسباب التى تخولهم ارتكاب الظلم، وهى دين أهل النقيصة والإثم. وربما أيدوا مذهب الاشتراكية فيقولون: ما بالنا نرى الناس متفاوتين فى اليسار، وأخلق بالأقوياء أن يكونوا به ممتازين. وربما استبدوا فاعتقدوا أن الناس فطروا على الظلم، واحترموا الظالمين ترويجا لمذهب زهير بن أبى سلمى «**ومن لا يظلم الناس يظلم**» وربما تمثلوا بقول الإباحيين:

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

أما القوة الغاشمة فهى عارية تماما، يذهب بزوالها فضل المستندين إليها؛ إن رفع العقيرة بالحق من دون الاستنصار بالقوة لا يجدي، لأن صوته وحده فاتر، وسلاح القوة وحده قاهر، وقسطاس العدل لا ينصب إلا بتناصرهما وتوازهما، ومن جاهد فى الحياة بدونهما معا فلا محيص من انهزامه. وكما تكون القوة بالسلاح تكون باجتماع القلوب ومعاضدة الأيدى وطهارة النفوس من أوضار الحقد، عند ذلك يستند كل إلى صاحبه كما تستند الصخرة إلى الصخرة، فيتكون منهما بناء راسخ يكافح قوى الطيف على مر الزمان.

الأمم كالأفراد تثيرها القوة، فتلهو عن الحق وتستهتر بالضعيف، وتريد أن تحافظ على عظمتها فتشيد الحصون وتجهز الجنود، وإذا سئلت ماذا تقصد من وراء

هذا، أجابت بأن الاستعداد للحرب من ذرائع السلم، ثم تخونها عقيدتها المتكلفة فتتصل بأتفه الأمور لتشعل نار الحرب، فتدفع إليها من غير حساب لعواقبها الدفاع السهم إلى الرمية. ومع أنها تعلم أن الحرب تجر الشر على الغالب والمغلوب على السواء، فإن بوارق الأمل بالانتصار تتلألأ أمام عينيها، والنصر معيار لقوة الشعب، وعليه مدار عظمتها وفخارها، على أن طبيعة القهر كمينة فى النفوس تظهرها القوة ويخفيها الضعف، والسنن الكونية لا تدافع ولا تعارض، وليس للكائنات منها مهرب، والحرب من لوازم الحياة تقتضيها سنة تنازع البقاء، وربما تهادنت عناصر الموجودات زمنا ولكنها تعود إلى الخصام، إليك الصخر الأصم تخرج ناره إذا قدح فيه، والأشجار الكثيفة فى الأحراج تحركها الرياح فتحتك فروعها بعضها ببعض وتشتعل، وجوف الأرض فى سير الأرض، وتخر من بطشه رواسى الجبال فتتناثر جزرا ووهادا. وقد يخرج البخار من شق أرضى جاذبا معه مذوب المعادن والأحجار فتتراكم وتحدث الجبال، والماء يتأثر بالشمس فيستحيل بخارا، يذهب إلى الجو صاعدا وينعقد سحابا، ثم يتكاثف وينزل إلى الأرض ماء. والحيوان يتغلب على النبات، والإنسان يسطو على الحيوان، وعلى الإنسان تتغلب عوامل الفناء فيموت، وتمتزج أشلاؤه بالتراب ويصير غذاء للنبات، وهكذا تنتقل الكائنات من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة بنظام دقيق لا يعتريه فتور ولا يصادفه خلل وهذه إرادة الله وحكمته.

تهذيب هذه الغريزة:

كل شيء فى نظر الطفل داخل فى حدود الممكنات، فإذا نال ما طلب فقد لبّى نداء غريزة التملك واستراح، وإلا فإنه يغضب فتنبه فيه هذه الغريزة وما تنبهت إلا لتريح أعضاءه الهائجة بالصياح والعويل والتمريغ على الأرض ولطم الوجه وتمزيق الثياب، ولا يزال كذلك حتى تخمد ناره وتهدأ ثائرته. ومن ذا الذى يستطيع كتمان هذه القوة التى تنوء بحملها صدور الأقوياء، فالعين تذرف الدمع تلطيفا

لحرارة الحزن، والقلب يفزع إلى الصراخ تخفيفا لوطأة الفوادح، وهذا ما صيّر النسوة أصبر من الرجال على حمل المصائب، وما أحكم الخنساء فقد النساء الدمع عندما نكبت بوفاة أخيها فقالت:

أعينى جودا ولا تبكيـــــا ألا تبكيـــا لصخر الندي

والإغضاء على بوادر الغضب أخف ضررا من قمع القوة المتهيجة، والعاقل من يقابلها بالملاينة والملاطفة والمباحثة فى أسبابها حتى يهدأ الخاطر الثائر. روى أن ابن الرواندى قال:

كم عاقل أعيت مذاهبـــــه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

فهاج لسماعها أحد الحمقى، واستفظع صدورهما من عالم دين وهم بقتله، فمضى قدما إلى مصر وقابل ابن الراوندى عرضا، وكاشفه بجلى الأمر، فرأى ابن الراوندى من الحكمة أن يتنكر، ملتمسا له عذرا فى هذا التعصب الذى هو من بلايا الجهل. ثم أخذ يستطلع رأيه فيما اعتزم عليه، ويحادثه فى شؤون الحياة المعقدة، ويطلعه على عجائب الخلاق، فى قسمة الأرزاق، ويريه العالم بائسا محروما، والجاهل منعما قرير العين مخدوما. ومازال ابن الراوندى به حتى أقنعه بصحة ما سمع من الشعر فهدأ مزاجه المضطرب.

وللجماعات حماسة يبدونها فى المواقف الدينية والوطنية تألما من شيء تستنكره، فتهيج أعصابها ويتولاها اليأس، وتسير فى السبل هاتفة صارخة. فإذا أرغمها حفاظ الأمن على التزام السكينة اعتقدت أنها صودرت فى شعورها، فيزداد ألمها، ويقودها الانفعال النفسى إلى أحرج المواقف. ولا شيء أجدى من مقابلتها باللين والحلم وسماحة الخلق. ولا علاج أنجع للغضبان من تهدئة ثائرته وتطيب خاطره.

والطفل النشيط يؤذيه الفراغ، فيتسلط على أهله، ويكدر عليهم صفاء عيشهم،

ويستنزف ما يسلبه من أموالهم. فعلى المؤدب أن يشغل فكره وقت الفراغ والعمل بالمسليات، ليحول ذلك بينه وبين تدبير الفساد

ونفس العصبيين تجيش عند الحوادث، فتسهل لهم ارتكاب الجرائم تصريفا لقوة القهر فترخص فى نظرها الحياة، حتى لقد فشا داء الانتحار يستشفى به المصاب بالآم الغيظ، فيتعاطى السم أو يهوى من المرتفعات، أو يجنى على نفسه بالحرق أو الغرق. والانتحار التدريجى أكثر فتكا، لأنه استسلام إلى الأهواء التى هى حبائل الشيطان، والتمادى يريح أعصاب العاكفين عليها كما يتداوى شارب الخمر بالخمر.

لو بحثت لعلمت أن الغضب الجامح هو الداء العضال الذى يزحزح العقل عن أطواره ويزعزع أركان الجسم. وعلاجه معاملة الغضبان باللين، وتوصيته بالصبر على احتمال المكاره، وقلما أفادت النصيحة متى توافرت أسباب القوة، ولذلك توجهت عناية المربين إلى توزيع هذه القوة فى غير وجوه الضرر.

وفكروا فى المبارزة بالعصى والرمح المغمودة النصول، لتمرين اليد ودفع الخطر، وفكروا فى نظام الكشف الذى راج سوقه بين النشء للتدريب على الخشونة والشجاعة وعيشة الخلاء، استكثارا لأسباب الصحة، واستدرارا للخير واجتنابا للشر.

ما أسعد الأمم التى تضافرت أفرادها على مغالبة القوى الطبيعية، فقد ذللوا تيارات الهواء والماء واستخلصوا منها قوة عنيفة، وجمعوا كثيرا من أشعة الشمس فى بؤرة فاستحوذوا على حرارة قوية، ونجحوا فى استخدام الكهرباء والقوة البخارية، ولا يزال الفكر الإنسانى يجول فى فضاء العالم منقبا عن كنوزه المستورة وقواه الدفينة.

obeikandl.com